المحاضرة الأولى: إرهاصات النقد الأدبي المعاصر(النقد الشكلاني):

تمهيد:

من النظريات النقدية المعاصرة التي كانت إرهاصا لظهور المناهج النسقية المعاصرة، كالبينوية والأسلوبية والسيميائية وغيرها، نذكر: النقد الشكلاني، وسنحاول، ضمن هذا الطرح الموجز، عرض مادة النقد الشكلاني (الشكلانية الروسية)، وإبراز دوره في نشأة النقد الأدبي المعاصر، مع التركيز على أصول نشأته وقواعده في الدراسة والتحليل.

أوّلا، الشكلانية الروسية:

ظهرت الشكلانية الروسية ما بين (1930/1910) على يد مجموعة من الطلبة الروس الرافضين للدراسات التقليدية للأدب، وكان ظهور هذه الجماعة ردُّ فعل على انتشار الدراسات الماركسية في روسيا. وقد لقيت رداً عنيفاً من طرف الماركسيين.

تعود نشأة الشكلانية إلى رافدين هما:

- حلقة موسكو اللّسانية: التي نشأة سنة (1915) والتي من أهم روادها: رومان ياكبسون الذي لديه بالغ الأثر في اللّسانيات، كما ساهم في الدراسات الأدبية والنقدية.
- حلقة أبوياز (لننغراد): التي كان روادها من طلبة الجامعة المهتمين باللّسانيات والشعر. أمثال: **فلاديمير مايا كوفسكي، ماندیل شتام...**

رواد الشكلانية: لودي نيكولاي فيتش تينيانوف، بوريس إخنباوم، فيكتور بريسوفيتش شلوفسكي، فلاديمير بروب، توما شفسكي، رومان ياكبسون، ميخائيل باختين...

عند العرب: **رشاد رشدي (النقد الجديد)، مصطفى ناصف (المنهج اللغوي الجمالي)، إبراهيم الخطيب (نظرية المنهج الشكلي).**

مبادئ الشكلانية:

- موضوع الأدب هو الأدبية، وعليه يجب التركيز على الخصائص الجوهرية لكلّ جنس أدبي على حدة، والاهتمام بخصوصيات الأدب والأنواع الأدبية.
- دراسة الشكل قصد فهم المضمون بمعنى شكلنة المضمون ورفض الثنائية المبتذلة (شكل/مضمون). "وهاجم **شلوفسكي**، على طريقته المعروفة بالنقد اللاذع والمثير للجلبة، والسفسطة القائلة (بالمحتوى المستقل). واستهزأ من النقاد الذين يدرسون الشكل بوصفه (شراً لا بد منه) ومظهراً (لشيء حقيقي) والذين يبعدون باستهتار الشكل بغاية فهم (محتوى) الأثر الفني... إنّ أمتع ما في المنهج

الشكلاني كامن في كونه لا يرفض المحتوى الأيديولوجي للفن، وإنّما يعتبر ما يسمى محتوى من مظاهر الشكل".

- التركيز على أدبية النص وعليه يجب التركيز عمّا يميّز النص الأدبي عن باقي النصوص، كما أنّ "مكمن خاصية الأدب ينبغي البحث عنها في الأثر الأدبي نفسه وليس في الأحوال النفسية للمؤلف أو القارئ.

- الانفتاح على اللّسانيات واستثمار مكتسباتها في الدراسة الأدبية، "إنّ مشاكل العلم الأدبي واللّساني الحالية، في روسيا، يجب أن توضع فوق قاعدة نظرية واضحة؛ إنّها تستلزم أن نقطع صلتنا بأساليب الحشد الميكانيكية التي يتنامى ورودها، والتي تضيف المنهجية الجديدة إلى المناهج القديمة البالية، مدخلة بلطف النزعة النفسية الساذجة ونزعات رثة أخرى تحت غشاء مصطلح جديد". كان "نزوع الشكلانية نحو المشاكل الأساسية للنظرية الأدبية بربطها ربطاً حميماً باللّسانيات والسميائيات الحديثة قد وجدا الصياغة المختصرة في دراسات **رومان ياكبسون**".

- إقصاء المرجع الخارجي واستجلاء الشكل وبنية الدلالة؛ "إنّ العمل الأدبي هو شيء منته، قد أعطي له شكل، ابتدع له، وهذا الشكل ليس فقط، شكلاً فنياً، بل مصطنعاً، في أفضل معاني هذه الكلمة؛ ولهذا فهو ليس- ولا يمكن أن يكون- انعكاساً للتجربة السيكولوجية".

- الدفاع عن الشعر الجديد كونه يمتاز بطابع رمزي إيحائي. كما أنهم ميزوا بين الوزن والإيقاع، فالشعر يمكنه أن يستغني عن الوزن لكنه لا يستطيع أن يستغني عن الإيقاع.

- التشديد على خاصية الاختلاف والانزياح بين الشعر والنثر.

- عدم الاقتصار على الأعمال الفنية المشهورة في مجال الأدب. "إنّ الأبوياز وهي تستهين بالاهتمام التقليدي بـ(التعميمات الأدبية)، قد وسعت هدف البحث التاريخي وذلك بجعله يشمل ظواهر هامشية: الكتاب المغمورين أو شبه المنسيين، والإنتاجات الجماهرية والأجناس الأدبية الفرعية. ليس الأدب، كما يؤكد الشكلانيون، تعاقباً للآثار الأدبية الرفيعة".

- الايمان باستهلاك الأنظمة وتجددها وتطورها باستمرار من تلقاء ذاتها؛ "إنّ الأنواع تعيش وتنمو. وهناك سبب أولي أرغم سلسلة من الأعمال الأدبية على أن تتشكل في نوع مستقل. أمّا في الأعمال الأدبية التي تظهر فيما بعد. فإننا نلاحظ ميلاً إلى مشابهة أعمال نوع معين، أو خلافاً لذلك إلى مخالفتها. إنّالنوع يزداد غنى بالأعمال الأدبية الجديدة التي تلتحم بالأعمال التي سبق وجودها للنوع المعين".

- التركيز على التحليل المحايث قصد اكتشاف خصائص العمل الفني؛ فقد وضع الشكلانيون أساس أطروحتين أساسيتين هماّ:

1. تشديدهم على الأثر الأدبي وأجزائه المكونة.
2. إلحاحهم على استقلال علم الأدب.

"لقد ردد الشكلانيون القول: لقد آن الأوان لدراسة الأدب الذي ظل، منذ أمد بعيد، أرضاً بدون مالك أن ترسم الحدود لحقلها وتحدد بوضوح موضوع البحث".

مصطلحات الشكلانية:

- **الأدبيةLitterarité:** أسند **بوريس إيخنباوم** الصيغة النهائية لهذا المصطلح إلى **جاكبسون**، حيث يقول: "إنّ **رومان جاكبسون** هو الذي أعطى لهذه الفكرة الصيغة النهائية حين قال: إنّ موضوع العلم الأدبي ليس هو الأدب وإنّما الأدبيةأي ما يجعل من عمل ما عملاً أدبياً".
- **علم الأدب:** تتلخص مهمته في تتبع الخصوصيات الأصيلة التي تميّز العمل الفني عن غيره، فالشرط الأساس عند الشكلانيين "أن موضوع العلم الأدبي يجب أن يكون دراسة الخصيصات النوعية للموضوعات الأدبية التي تميزها عن كل مادة أخرى".
- **الشكل Forme:** يحيل على البناء والنظم كما يحيل على الصياغة الشعرية، "إن مفهوم المادة لا يخرج عن حدود الشكل، فالمادة هي أيضا شكلية؛ وأنّه من الخطأ خلطها بعناصر خارجية عن البناء". "إنّ وحدة وحدة الأثر ليست كياناً تناظرياً ومغلقاً، بل تكامل ديناميكي له جريانه الخاص، إنّ عناصره لا ترتبط فيما بينها بعلامة تساوي أو إضافة، إنما بعلامة الترابط والتكامل الديناميكية".
- **التغريب singularisation:** جعل المألوف لدى المتلقي غريباً عن طريق التنويعات الفنيّة، فالأديب يجعل الأشياء المعتادة والمألوفة بادية للمتلقي في صورة جديدة غير مألوفة، وينزع عنها الألية المعتادة من خلال عرضها في قالب فني غير مألوف. "إنّ قارئ القصيدة أو مُشاهد اللوحة يَنتبهُ، في الواقع، إلى نظامين اثنين: من جهة، القاعدة التقليدية؛ ومن جهة أخرى التجديد الفني كانحراف عن القاعدة. فالتجديد يُدركُ فوق خلفية التقليد"؛ حيث تكون مهمة الأديب أن يُعبر عن الشئ المألوف بطريقة مبتكرة في صورة فنية. من العناصر التي تُسهم في عملية نزع الآلية: الصور الفنية، الأساليب الجديدة...
- **التطوّر الأدبي:** يرى الشكلانيون أنّ تاريخ الأدب إنّما هو تاريخ تطوّر الأشكال الأدبية إلى ما لا نهاية، "الشكل الجديد لا يظهر لكي يعبر عن مضمون جديد ولكن ليحل محل الشكل القديم نتيجة للمفهوم الجديد للشكل. إنّ فهم الشكل كمضمون حقيقي يتبدل بدون انقطاع عن طريق علاقته بأعمال الماضي". "إنّ قضية التاريخ الأدبي المركزية، بالنسبة لنا، هي قضية التطور خارج الشخصية، وخارج دراسة الأدب كظاهرة اجتماعية في الأصل. وهي هذا الاتجاه أعطينا أهمية فائقة لمسألة تكون الأنواع الأدبية واستعراضها".

- **النسق Procédé:** يقصد بالنسق مجموع العناصر التي يحكمها نظام واحد. الشعور بالشكل يبدأ لما يتم تصوّر العمل الفني باعتباره نتيجة لمجموعة أنساق. "إنّ أنساق البناء تتجمع حول بعض الأنساق المدركة، وهكذا يتم خلق طبقات أعمال أدبية مستقلة (أنواع) تتميز بتجمع أنساق حول أنساق مدركة، نسميها ملامح النوع"[1]. وتجدر الاشارة في أنّ مفهوم النسق في هذا السياق يتداخل مع مفهوم المهيمنة؛ فداخل العمل الفني الواحد نجد مجموعة من الأنساق التي يستند بعضها على بعض والنسق المهيمن يسمى مهيمنة.
- **المهيمنةla dominante:** شكل مفهوم المهيمنة أحد أهم المصطلحات الشكلانية وأكثرها عمقاً. "إنّ المهيمنة تكسب الأثر نوعية. فالخصيصة النوعية للّغة الشعرية هي، بداهة، خطاطتها العروضية، أي شكلها كـ (شعر). إنّ هذا القول يكمن أن يظهر كتحصيل حاصل: فـ (الشعر) هو (شعر) ومع ذلك فيجب للحقيقة التالية ألا تغيب عن بالنا: وهي أن عنصراً لسانياً نوعياً يهيمن على الأثر في محموعه؛ إنّه يعمل بشكل قسري، لا راد له، ممارساً بصورة مباشرة تأثيره على العناصر الأخرى". فالمهيمنة عنصر جوهري يشكل بؤرة الأثر الفني؛ حيث تحكم العناصرالأخرى وتحدد طبيعتها وتضمن تلاحم البنية ككل.

"فيما يتعلق بالمفهوم الشكلاني للتطور الأدبي. ففي تطور شكل إنشائي، لا يتعلق الأمر كلياً بزوال بعض العناصر وانبعاث عناصر أخرى بقدر ما يتعلق بانزلاق في العلاقات المتبادلة لمختلف عناصر النظام، بعبارة أخرى: بتبدل في المهيمنة. إنّ العناصر التي كانت في الأصل ثانوية، في إطار مجموع معين من القواعد الإنشائية العامة أو بالأحرى خاصة في مجموع القواعد الصالحة لنوع إنشائي معين تغدو، على العكس، أساسية وفي المقام الأوّل. وخلافاً لذلك، فالعناصر التي كانت، في الأصل مهيمنة لا تعود لها سوى أهمية صغرى فتغدو اختيارية".